يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

٢١ اكتوبر ...

ما كدت هذا الصباح أرشف فنجان القهوة على مكتبي حتى وردت إشارة تليفونية بوقوع حادثة تسمم فى دائرة المركز : امرأة تناولت من مطلقها فطيرة فظهرت عليها الأعراض ، وهى تتهمه بسمها للتخلص من النفقة الشرعية . كلام معقول . ومسألة تستدعى التحقيق من غير شك . ولكنى من جهة أخرى أعرف قضايا التسمم . وما فيها من «قرف» خصوصاً على الصبح . وأعلم أنى سأنقل فأجد امرأة عائمة فى بركة من القيء والبراز . وكلما وجهت إليها سؤالاً تلقيت جواباً لا من الكلمات بل من الـ ... أعوذ بالله ! ولم أتمالك وأخرجت منديلى وبصقت فيه . وجعلت أفكر فى إحالة هذه القضية على المساعد . وطلبته بالفعل فحضر فلمته الاشارة ، فمر عليها بنظرة سريعة وصاح :

— تسمم ! وأنا عمرى حققت قضايا تسمم أو حتى حضرت تحقيق التسمم !

كلامه هو الآخر معقول . خصوصاً التسمم . حتى أنا القديم المتمرن ، لا أستطيع تحقيق هذه القضايا إلا ومعى « الاستمارة » المنصوص عنها فى تعليمات النائب العمومى . هذه الاستمارة فيها أسئلة معينة بالذات لابد من سؤالها وتلقى الجواب عنها . وترفق صورة من هذه الأسئلة والأجوبة مع تقرير وجيز بالقطرميز الحاوى « لعينات » القيء والبراز لارسالها للتحليل . هذا مع عدم نسيان قص أظافر المتهم ، وقص جيوبه وإرسالها كذلك داخل أحراز مختومة للتحليل الكيماوى . إذ كثيراً ما تكون آثار الزرنيخ عالقة بالأظافر والجيوب . وناديت كاتب التحقيق وأمرته بتهيئة اللازم للقيام وطلبت إليه الاستمارة المذكورة ألقى عليها نظرة وأتذكر مافيها . فأحضرها وأحضر معها التعليمات فقرأت ما يلى :

« فقرة ١٤١ — عند إرسال الأحراز إلى القلم الطبى الشرعى ... على النيابة أن ترسل فى آن واحد للنائب العمومى ... الاستمارة الآتية بعد استيفاء جميع الخانات بالضبط :

(١) تاريخ التبليغ عن الحادثة

(٢) اسم المصاب وعمره وجنسيته

(٣) هل كان المصاب فى صحة جيدة قبل الاصابة ؟

(٤) الأعراض التى لوحظت : كالقيء ، الاسهال الألم ، العطش ، ألم الرأس ، الدوار ، فقد قوة الأطراف ، التقلصات ، النعاس ، العرق ، التيبس حالة الحدقتين ، النبض ، التنفس !

(٥) هل كان المصاب يشكو من مذاق خاص فى فمه من الطعام ؟

(٦) هل حصل للمصاب تحذير أو تنميل بلسانه أو أطرافه ؟

(٧) هل حصل المصاب غيبوبة ؟

(٨) هل حصل له تشنجات أو التواءات بالفضلات ؟

(٩) هل ظهرت الأعراض فجأة ؟

(١٠) هل سبق أن حصل للمصاب حالة تشبه هذه ؟

(١١) الفترة بين تعاطى المادة المشتبه فيها وأول ظهور الأعراض ؟

ملاحظة — يجب ذكر تواريخ واضحة وساعات معينة عما تقدم أى أنه لا يقال مثلاً بعد اليوم الثانى بثلاث ساعات أو فى يوم (الاثنين) بل يقال مثلاً ابتدأت الأعراض فى الساعة ٤ بعد ظهر يوم ١٦ شهر كذا سنة كذا وأول ما لوحظ منها هو كذا وذلك فى الساعة ٣ مساء أو صباحا بالضبط ... »

شىء جميل جداً !! كل هذه الأسئلة ينبغى أن تطرح على مصاب لا يعرف رأسه من رجليه . والأعجب من ذلك أن نطالبه بأن يخبرنا بأن الأعراض ابتدأت فى الساعة كذا بالضبط . إذ لا ينبغى أن يقال مثلاً فى يوم (الاثنين) . بل على هذا المصاب المسكين الغارق فى متحصلات جوفه الشاعر بالدوار وفقد قوة الأطراف والتقلصات والنعاس الخ الخ . باعتراف الاستمارة ... على هذا الرجل أو هذه المرأة الفلاحة الساذجة التى لا تحمل فى جيبها ساعة وربما لم تر فى حياتها الساعة أن تقول لنا إن الأعراض لوحظت أول ما لوحظت فى الساعة ٣ والدقيقة بالضبط !!!

النهاية . قمنا نصب هذه الأسئلة على رأس المرأة المسمومة . واصطحبت معى المساعد يشاهد حتى تزول حجته فى المستقبل . غير أننا ما كدنا نتحرك حتى وردت إشارة تليفونية أخرى قدمها إلى الحاجب فقال :

— نهار باين من أوله !

وقرأت فاذا هى إخطار من المستشفى الأميرى بوفاة قمر الدولة علوان . فصحت : « مات الرجل قبل أن نعرف منه سر الموضوع » . وظلبت قلماً وأشرت فى الحال على ذيل الاشارة العبارة المألوفة فى مثل هذه الحالة : « نأمر بتشريح الجثة » .

وقلت للمساعد أن يذهب هو لحضور التشريح وإفادتى بنتيجته بمجرد الفراغ منه . فمضى هو إلى المستشفى . ومضيت أنا إلى منزل المرأة التى أكلت الفطيرة ؛ وكان الأمر فعلاً كما توقعت : وجدت المرأة فى صحن الدار وحولها جاراتها لم يتركن فيما يخيل إلى آنية ولا « حلة » ولا « كرواتة » فى الحارة إلا أتين بها ووضعنها تحت فم المصابة المطروحة أرضاً تتلوى وتحشرج . ونظرت نظرة إلى كاتب التحقيق فهم منها أن يفتتح المحضر ، وتقدمت بين الأوانى المملوءة حتى دنوت من المجنى عليها وسألتها :

— اسمك وعمرك وجنسيتك ؟

فلم تجب . ولم يبد على وجهها الباهت المتقلص المضلات أنها فهمت عنى . فأعدت عليها الكرة فى شبه صياح ، فلم يخرج من فمها غير أنين طويل ممزوج بشروع فى قىء جديد . وقد أسرع بعض النسوة إليها يسندن رأسها المائل بأكفهن ، وهن يتهامسن :

— أيوه يسيبها فى غلبها !

فأجبت مؤمناً على منطقهن وكأنى أخاطب نفسى :

— والله كان بودى أن أتركها فى غلبها ، لكن أعمل إيه ؟ ؟ قلم النائب العمومى فى انتظار الاستمارة والقطرميز !

وتشجعت امرأة لسنة بين النسوة وقالت لى :

— « مش ادلعدى » حضرتك طالب تعرف اسمها ؟ اسمها نبوية

— نبوية إيه ؟

— لأ ما نعرفش غير نبوية . أهى فى الحارة كنا نقول لها تعالى يا نبوية روحى يا نبوية

ولكن هذا لا يكفى . ولا بد من كتابة اسمها كاملاً . فتوسلت إلى النسوة أن يساعدننى على حملها على النطق دقيقة واحدة . فتكاثرن عليها ورفعن

رأسها الذى لا يريد إلا أن يقع على صدرها وهمس فى أذنها يرجوها الكلام وإجابة البك النيابة . وبعد ساعة بالتمام حركت المصابة شفتيها فاستبشرت النسوة وشجعنها رابتات على كتفيها :

— أيوه ... أيوه ردى علينا يا حبيبتى !

فأسرعت أصيح قرب أذنها وقد تصبب العرق منى :

— اسمك ؟ اسمك إيه بقى ؟ ...

فأنّت وزامت وقالت فى صوت خافت متهدج :

— اسمى ... نبوية

فكدت أشق ثيابى :

— مفهوم ! نبوية ! كويس خالص ! لكن نبوية إيه ؟ اسم « أبوك » إيه ؟ أنا فى عرض « أبوك » ! نبوية إيه ؟ ولكنى أخاطب وأتوسل إلى شبه جثة . فقد انحدر رأسها وسقط على صدرها من جديد . ولزمت الصمت إلا من ذلك الأنين الخافت . وبلغ منى اليأس والضيق ، فصحت فى النسوة صيحة داوية فأسرعن وأنهضنها مرة أخرى ومسحن صدغيها بالماء البارد وناجينها بالكلام المذب إلى أن ظفرنا آخر الأمر باسمها كاملاً . ولكن بقى فى الاستمارة عشرة أسئلة ! وإذا كان ذكر الاسم على بساطته قد اقتضى هذا المجهود ، فكيف بالباقى ؟ خصوصاً السؤال الأخير : بيان الفترة بين تعاطى المادة المشتبه فيها وأول ظهور الأعراض ؟ مع وجوب ذكر تواريخ واضحة وساعات معينة كما تقول الملحوظة ! ! أى أن هذه المرأة التى لم تخرج اسمها من بين فكيها إلا بعد أن كادت تخرج أرواحنا ستقول لنا عن الساعة والدقيقة بالضبط التى لاحظت فيها ظهور الأعراض أول ما لاحظت ؟ شىء جميل ، أنا مجنون أسأل هذه الأسئلة ؟ أليس فى عينى نظر ؟ ماذا تظن بعقلى هؤلاء النسوة إذا خالجنى طمع فى أن أتلقى من هذه الطريحة جواباً بالساعة والدقيقة عن الأعراض والفترة بين تعاطى المادة وظهور أول ... إلى آخر هذا الكلام المطبوع على استمارة صنعت فوق مكاتب العاصمة فى صفاء وهدوء بال بعيداً عن مناظر القىء والاسهال : وأومأت إلى الكاتب أن « اقفل المحضر » وأفهمته أن المصابة لم يمكن استجوابها واكتفينا بأخذ « عينات » القىء والبراز وقص أظافر وجيوب المتهم . ثم عدنا إلى دار النيابة حيث ارتميت على مقعدى تعباً أغمضت عينى قليلاً ؛ ثم فتحتها على صوت الباب يفتح وقد دخل منه مساعدى أصفر الوجه . فأفقت من خمولى فى الحال وابتدرته :

— مالك ؟

— التشريح

— آه حضرت العملية ، والنتيجة ؟ ؟

— النتيجة أنى أنا ...

وجلس على كرسى قريب ؛ فحدقت بنظرى مليا فى وجهه . ففهمت كل شىء . إن هذا الشاب قد حدث له ما حدث لى يوم حضرت لأول مرة تشريح جثة آدمية . هذا الشاب الرقيق الذى خرج بالأمس من بين الكتب ؛ تلك الكتب التى أرتنا وأفهمتنا أن الانسان شىء عظيم ، إنه هو محور الكون ، وأنه المصطفى الملحوظ دون بقية المخلوقات بعناية الخالق الأعظم ، وأنه الكائن النورانى الروحانى الذى سوف يبعث ؛ هذا الانسان لم يتح لكثير من الناس أن يطلعوا على تركيبه من الداخل ؛ فاذا ما اطلع أحدنا على ذلك سرت فى نفسه صدمة يختلف تفسيرها باختلاف مزاج الشخص وطبيعته وثقافته ؛ وإنى لن أنسى أبداً يوم وقفت المرة الأولى على رأس جثة رجل أصيب فى دماغه بعيار نارى أطلق عن قرب فكسر

الجمجمة وهتك الجدار الأيمن للأذن حتى برز جزء من جوهر المخ ؛ وحضر الطبيب للتشريح فقمت معه أشاهد ما يفعل ؛ وغادرنا الغيط الذى وقعت فيه الحادثة ، وانتقلنا إلى دار المجنى عليه ؛ وهى دار قروية متواضعة ، وجئ بالقتيل يحمله أهله وقد لفوه فى لحاف جديد « بيوشه » ، ومن حوله النسوة بعويلهن وصياحهن وطينهن يلطخن به وجوههن وكان معى مأمور نشيط أمر رجاله بإخلاء المكان إلا من رجال الحفظ والطبيب وحلاق الصحة ومعاونيه ، وأتوا « بطشتين » كبيرين وضعوهما تحت « دكة » عريضة من الخشب فى صحن الدار ؛ ووضع الحلاق ومعاونوه الجثة فوق «الدكة» وخلعوا ملابس القتيل ، وكانت جديدة احتفالاً بعيد الفطر ، إذ وقعت الجريمة فى اليوم الأخير من شهر رمضان ، كأنما أراد القاتل أن يسرع خشية أن يحل العيد وغريمه على قيد الحياة ، وحرصاً منه على أن تكون هدية العيد تلك الرصاصة فى رأس القتيل ، ورغبة منه فى أن تتغير نغمة أصوات العيد وأناشيده المتصاعدة من جوف هذه الدار ، وأعمل الطبيب المشرط حالا فى رأس القتيل وهو يملى على الكاتب :

— ونزعنا الفروة (يقصد فروة الرأس طبعاً)

وعندئذ علا صياح النسوة ، وكن قد تسللن وتسلقن سطح الدار والأسطح المجاورة « للمرشة » بحطب القطن والذرة ، وسمعت بين أصواتهن المختلطة صوتاً رفيعاً حاراً مؤثراً أوجع قلبى يصيح :

— يا شجرة و « مضلاتنا » يا بويا !

وتلاه صوت آخر فى مثل وقعه ولهيبه وقد امتزج بنشيج وبكاء مر :

— ياللى كنت خارج بسحورك فى بطنك يابه

وتم نزع الفروة ، ووضع الطبيب أصبعه فى فتحة الجرح يسبر غوره ويعرف حدوده ، وأملى الكاتب :

— جرح نارى طوله أربعة سيمتر . . .

وحاول أن يعثر بأصبعه على الرصاصة فلم يستطع فتناول منشاراً من المعدن من حقيبته وجعل ينشر الجمجمة من الجبهة ليفتح الرأس فلم ينجح فى نشرها لصلابتها فأخذ مطرقة صغيرة من بين أدواته وطفق يدق بها فوق المنشار كأنما يدق على علبة « سردين » وسمعت إحدى العجائز ذلك ورأت من فجوة السطح ذلك الدق و « الهبد » فى رأس رجل العائلة وعميد الدار فوضعت كفها على خدها وقالت متنهدة :

— اسم الله عليه !

هذه الكلمة هزتنى . ووجدت لوقعها غرابة . إن تلك العجوز ما زالت تعتقد أن رجلهن هو رجلهن بشخصيته وآدميته ، أما أنا فمنذ لحظة قد بدأت أشك فى ذلك

وتم نزع الغطاء أو «القراعة» ، وظهر من تحته الغلاف الرقيق الذى فوق المخ مباشرة ، فمزقه الطبيب بمشرطه ، وجعل يفحص ما حول الجرح وهو يملى :

— تزيف دموى شديد بأنسجة المخ ...

وجعل يبحث بأصبعه عن الرصاصة فلم يجد شيئا . واستمر فى البحث حول تلك المنطقة القريبة من الجرح فلم يعثر للرصاصة على أثر . أين ذهبت إذن ؟ وليس هنالك من فتحة أخرى يظن أن المقذوف خرج منها . ولما يئس الطبيب . وقال لى باسما : إن المقذوف النارى يتخذ أحياناً خطوط سير عجيبة فى جسم المصاب وأحياناً تدخل الرصاصة من البطن فلا يعثر عليها إلا فى الفخذ . قد يكون هذا معقولاً . ولكن رصاصة تدخل من الرأس تستخرج من القدم ! هذا شغل «حواة» ولا أصدق أن الرصاصة لها كل هذه المقدرة . واستاء الطبيب أخيراً وصاح :

— وعلى إيه ؛ آدى مخ الراجل بحاله ...

وأخرج بكلتا يديه كل ما فى الجمجمة من مخ حتى أخلاها فأصبحت مثل « السلطانية » النظيفة وقسم هذا المخ أقساما أربعة أعطى كلا من معاونيه قسما وكلفهم أن يبحثوا عن القذوف بحثا جيداً فجعلوا « يلغوصون » بأصابعهم فى هذه المادة التى يعزى اليها كل نبوغ الانسانية ، حتى صيروها شبه سائلة كالهلبية ؟

هذا هو مخ الانسان !

قلت ذلك همسا لنفسى : وقد بدأ الروع الذى أخذنى أول الأمر يزول عنى شيئا فشيئا . وتصلبت أعصابى وهمد إحساسى وتيقظ فى نفسى حب الاستطلاع ؛ ورغبة فى أن يفتح أمامى كل هذا الجسم المسجى لأنظر فيه . وما دمت قد رأيت المخ هكذا فلا القلب ولا الكبد ولا الأحشاء . لم يعد هذا الرجل فى نظرى رجلا ، إنما هو ساعة حيط كبيرة ممددة أريد أن أفتحها لأشاهد آلاتها وتروسها وعجلاتها وأجراسها

ولم يجد الرجال شيئا كذلك بعد البحث الطويل . إنه لسوء حظ كما قال الطبيب ؛ ولكنا مطالبون بالنتيجة على أية حال . ها هو ذا القتيل ولا بد أن تكون الرصاصة فيه . وشمر الطبيب عن ساعد الجد والضيق وأعمل المشرط فى ذلك الجسد ، وأنا من خلفه أشاهد وأقول :

— اقطع ! اشرط ! ...

وأخذتنى حمى غريبة وفقدت كل شعور إنسانى فجعلت أقول للطبيب : أرنى رئتيه ، أرنى أمعاءه ، أرنى الطحال الخ الخ . ولم يتردد الطبيب ، وشرط الصدر حتى أسفل البطن وأخرج القلب ثم الأمعاء وأملى :

— وجدنا القلب سليما ، والأمعاء بها طعام مهضوم ، ولم نعثر مع كل ذلك على شىء . ففكرنا مليا . فاتضح لنا أن الرصاصة قد تكون سقطت من نفس الجرح لاتساعه وثقلها وسقطت بسقوطه على الأرض . وفرغنا من العمل وانصرفنا وأنا أعجب لما حدث فى نفسى من انقلاب . أنا الرقيق الحس أرى الجزر والتقطيع بل آمر به ولا أرتعد ! ثم أى خيبة أمل ! لقد كنت أحسب الانسان أعظم من ذلك ! كلا ، لا ينبغى أن نرى أنفسنا من الداخل . إن صورة ما رأيت لا يمكن أن تزول من مخيلتى . ولا ريب أن تلك المناظر قد أحدثت فى نفس مساعدى أحداثاً . وأردت أن أسأله فى ذلك . ولكن الباب فتح وظهر حاجبى ومعه إشارة تليفونية فقلت :

— اللهم خيرا !

وتناولت الاشارة . وما كدت ألقى عليها نظرة حتى صحت :

— البنت ريم ؟ ! . .

فأسرع مساعدى متلهفاً .

— مالها ؟

— وجدوا جثتها فى الرياح قبلى البلد ؟

— وماتت ؟

قلت لك وجدوا جثتها ، خذ اقرأ الاشارة !

فأخذ المساعد الورقة وجعل يقرأ بعينيه حتى وصل إلى آخر عبارة وهى : « ويحتمل أن يكون سبب الوفاة اسفكسيا الغرق » وقفت عيناه عليها لحظة من التأثر ، وكنت أنا أشد منه حزناً على انطفاء حياة هذا الشىء الجميل بهذه السرعة

وأطرقت قليلا أفكر فى سوء حظنا ، لا من حيث العمل ، ولا لأن ريم مفتاح من مفاتيح القضية ؛ بل لأنها كانت صورة بديعة هزت نفوسنا جميعاً عاقلنا ومجنوننا ، ومخلوقا حلوا منحنا أوقات حلوة ولحظات مشرقة ، ونسيما عليلا هب على

صحراء حياتنا العاطفية الجدبة فى هذا الريف القفر

واستيقظت من تفكيرى ، ورفعت رأسى ومددت يدى إلى مساعدى أسترد الاشارة وأخط عليها العبارة المألوفة : « نأمر بتشريح الجثة » ، وفجأة تنبهت إلى فظاعة هذه العبارة ، نعم لأول مرة أجدها فظيعة ، طالما شرحنا جثثاً ، فليكن ، وإنى لعلى استعداد لتشريح نصف أهالى هذه البلدة ، أما هذه الفتاة ... أما هذا الجمال فحرام أن نمزقه لنرى ما بداخله ، ولمح مساعدى نص الاشارة بنظره الحاد فصاح :

— أظن ناوى تقول لى احضر التشريح

— ومين غير حضرتك ؟ !

— مستحيل ، أنا أولا كفاية علىّ تشريح الصبح ! حرام ! أقعد طول النهار أشاهد فتح جثث ! أنا مساعد نيابة مش مساعد حانوتى ! ثانيا البنت دى بنوع خصوصى ...

فتأملت قوله ، وعذرته . وأطرقت لحظة ثم قلت :

لك حق ، ريم بنوع خصوصى ! من له قلب يحضر .. أنا لو دفعوا لى عشرين جنيها ... ! هات الاشارة نشطب على التشريح ونأمر بالدفن ونخلص ... !

والواقع أن فى أيدينا أن نفعل ذلك بدون أن نتعرض للنقد والمسئولية ، فالطبيب الذى كشف عن الجثة عقب استخراجها من النهر قرر أن الوفاة من اسفكسيا الغرق ، أى أنه لم يجد آثاراً مشتبهاً فيها تدل على أن الوفاة جنائية ، فاجراء التشريح فى هذه الحالة دقة لا مبرر لها ، آه لرجال الفقة والقانون أصحاب الغرض ! إنهم يستطيعون أن يتصرفوا على كل وجه تصرفاً منطقيا مقبولا . وما كدت أمسك بالقلم لأشطب الأمر السابق حتى سمعنا صياحا فى الطريق ، فقمنا إلى النافذة ، فاذا بنا نرى الشيخ عصفور يجرى فى الطريق ، عارى الرأس بدون عوده الأخضر ، والصبية والغلمان ، وجمع من الأهالى خلفه وهو يصيح كالمجنون :

ورمش عينها يا ناس
يفرش على الميّـــه
واحده بياض شفتشى
والثانيـــة بلطيـه
والتالته من بدعها
غرّقها فى الميّه ...

وتارة يردد ذلك بصوت تارة كالعويل وتارة كالزئير ، وتارة فى حركات كحركات خطباء المساجد وهو يمشى أحياناً ويرقص أحياناً ويجرى فى كل جهة حتى اختفى عن أنظارنا ، فلبثنا عند النافذة صامتين مأخوذين ؛ ثم انتبهنا بعد لحظة وعدنا حيث كنا من الحجرة ونحن نقول كمن يخاطب نفسه :

— مسكين !

وعدت الى الاشارة ، وأمسكت بالقلم من جديد ، ولكن الشك والقلق خالجانى ..

— سمعته لما قال : « غرقها فى الميه » ! من اللى غرقها ؟ !

فقال المساعد :

— دى « هلوسة » مجانين ! حانفتح تحقيق بناء على « خطرفة » رجل مخبول فى الشارع ؟ ! أظن الأحسن ندفن البنت وننتهى !

فحا قوله ترددى ، وضغطت على القلم ضغط العزم والاقتناع وخططت أمر الدفن وأنا أقول :

— صدقت ، أنا حتى نفسى انصدت عن القضية وأصحابها ! !

(يتبع) توفيق الحكيم